

الفصل الرَّابِع
مُقَدِّمَةُ الْأَنْفُورِ
أَوْ صَلَاةُ الشُّكْرِ الْكُبْرَى

تمهيد

لو كانت الخدمات الكنسيّة هي قُدّاس الموعوظين فقط، لتخلّصت الكنيسة من كثير من الاضطهاد الحكومي لها. فبرغم اعتياد الكنيسة التّعريض لاضطهاد الوثنيين المتعصّبين ضدها، إلاّ أنّ اصطدام السُلطات الحاكمة بالكنيسة، كان بسبب أنّ الكنيسة ظلّت تقيم صلاة الإفخارستيا في سرّيّة تامّة، بينما كانت الحكومة قد منعت نهائيّاً الجمعيات والنّوادي السريّة. ولم يكن ميسوراً للكنيسة، أن تجعل صلاة الإفخارستيا، أو القُدّاس، علانية. لأنّ هذه الصلّاة، موقوفة على الأعضاء في جسد المسيح، أي جماعة القديسين. ومن ثمّ، كانت القُدّاسات قبل نيقيّة تُقام في بيوت خاصة. وكانت العادة، بأن تُقام في بيت رحب لأحد الأعضاء الأغنياء. وذلك لأنّه في مثل هذا البيت، تيسّر السريّة التّامة.

أمّا قانون جالينوس سنة ٢٦٠م، فقد أباح للمسيحيين حرّيّة الاجتماع. وعلى الرّغم من أنّ هذا القانون لم يمنع استشهاد بعض المسيحيين من أجل الإيمان، إلاّ أنّه أعطى للكنيسة فترة هدوء نسبي لمُدّة أربعين عاماً، قبل الاضطهاد الضّخم الذي شنّه الإمبراطور دقلديانوس.

وفي خلال هذه المدّة، كانت الصلّاة الجماعيّة تُقام في أمان. ولأوّل مرة شُيّدت مبان خاصة بعبادة المسيحيين. كما أننا نستدل من حال كنيسة سيرتا - وهي مدينة صغيرة في شمال أفريقيا تُسمّى الآن قسنطينة بالجزائر - على أنّ الكنيسة في تلك الفترة، كانت تحصل على ما يلزمها من التّأنيث الفاخر. وذلك لأنّ هذه الكنيسة، كان لديها كأسان من

الذهب، وستّة من الفضة، وست صواني من الفضة، وسبعة مصابيح من الفضة، وغير ذلك الكثير.

وهذه التّطوّرات، لم تُعدّ غريبة بل طبيعيّة. لأنّ الكنيسة لم تكن جماعة خاصة، أو نصف خاصة، لأنّها شعرت بواجبها نحو تبشير العالم بالمسيح، بمجرد الاعتراف بها ورفع الاضطهاد عنها. وهكذا لم تبق الكنيسة منعزلة، بغض النّظر عن المخاطر التي تحيق بها جرّاء الخروج عن هذه العزلة. ولقد اختارت الكنيسة أن تسير في هذا الطّريق.

معنى الأنافورا: Anaphora – ἡ ἀναφορά

كلمة ἡ ἀναφορά (أنافورا) في اليونانية تفيد عدّة معاني من أهمّها: "إعادة نقل"، أو "اللّجوء إلى (طلباً للمساعدة)". وصارت تعني حرفياً في المصطلح اللّيتورجي: "تقديم القربان أو رفعه - offering"، لأنّ الكلمة تتركّب من مقطعين: ἀνα (أنا)، وتعني: "إلى فوق". و φορά (فورا)، وتعني: "يرفع أو يُقدّم أو يلبس". وعلى ذلك، فالأنافورا هنا تعني رفع الصّعيدة أو القربان إلى فوق. وقد أُطلقت الكلمة على الجزء الرّئيسي من صلاة الإفخارستيا، وهو الجزء الذي يحوي التّقدّيس والتّذكّار والتّناول. لذلك فالكلمة تغطّي معظم صلوات اللّيتورجيا، لذلك أُطلقت عموماً على تقديم ذبيحة الإفخارستيا بكاملها.

وكلمة "أنافورا" عند السّريان والموارنة، يقابلها كلمة "قُدّاس" عند الأقباط. وهي تُدعى في الكنيسة الآشوريّة "قُدّاشاه".

وإنه من العجيب حقاً، أنّ تعبير "أنافورا"، ليس هو التّعبير المشهور في الكنيسة القبطيّة، إذ حلّ محله تعبير: "القُدّاس". برغم أنّ العنوان

القبطي لأبي قُدَّاسٍ قبطي في مخطوطاتنا القبطية، وفي الخولاجي المطبوع أيضاً، يحمل عنوان: "أنافورا".

فعنوان القُدَّاسِ الباسيلي القبطي هو:

Ⲭ ⲁⲛⲁⲫⲟⲣⲁ ⲛⲧⲉ ⲡⲓⲁⲛⲧⲓⲟⲥ Ⲫⲁⲥⲓⲗⲓⲟⲥ ⲉ̀ϥⲓⲱⲧ.

أي: "أنافورا القُدَّيسِ باسيلئوس للآب" (١).

وعنوان القُدَّاسِ الغريغوري القبطي هو:

Ⲭ ⲁⲛⲁⲫⲟⲣⲁ ⲛⲧⲉ ⲡⲓⲁⲛⲧⲓⲟⲥ Ⲓⲣⲏⲧⲟⲣⲓⲟⲥ ⲡⲓⲑⲉⲟⲗⲟⲥⲟⲥ

أي: "أنافورا القُدَّيسِ غريغوريوس النَّاطِقِ بِالْإِلَهِيَّاتِ" (٢).

وعنوان القُدَّاسِ المرقسي هو:

Ⲭ ⲁⲣⲭⲏ ⲛⲧⲁⲛⲁⲫⲟⲣⲁ ⲛⲧⲉ ⲡⲉⲛⲓⲱⲧ ⲉ̀ⲑⲟⲩⲁⲪ Ⲫⲁⲣⲕⲟⲥ
ⲡⲓⲁⲡⲟⲥⲧⲟⲗⲟⲥ ⲑⲏⲉ̀ⲧⲁϥⲉⲣⲪⲉⲪⲉⲑⲟⲛ ⲓ̀ⲙⲟⲥ ⲛⲧⲉ
ⲡⲓ̀ⲧⲣⲓⲥⲙⲁⲕⲁⲣⲓⲟⲥ ⲡⲓⲁⲛⲧⲓⲟⲥ ⲕⲏⲣⲓⲗⲟⲥ ⲡⲓⲁⲣⲭⲏⲉ̀ⲡⲓⲕⲟⲡⲟⲥ.

أي: "بدء أنافورا أبينا القُدَّيسِ مرقس الرسول، الذي ربَّبه وجمعه المثلث الطوبى، القُدَّيسِ كيرئس، رئيس الأساقفة" (٣).

الحوار اللبثورجي في مقدمة الأنافورا

يدور الحوار اللبثورجي في بدء قُدَّاسِ الْمُؤْمِنِينَ بَيْنَ الْكَاهِنِ وَالشَّعْبِ

-
- ١- كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٣١٢ وقد ترجم الخولاجي المذكور هذا العنوان القبطي إلى: "قُدَّاسِ القُدَّيسِ ... الخ".
 - ٢- كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٤٥١ وقد ترجم الخولاجي المذكور هذا العنوان القبطي إلى: "قُدَّاسِ القُدَّيسِ ... الخ".
 - ٣- كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٥٥٣. ولكن الخولاجي المذكور ترجم القبطية إلى "بدء قُدَّاسِ ... الخ".

كما يلي:

يقول الكاهن: "الرَّبُّ مع جميعكم".

يرد الشعب: "ومع روحك".

يقول الكاهن: "ارفعوا قلوبكم".

يرد الشعب: "هي عند الرَّبِّ".

يقول الكاهن: "فلنشكر الرَّبِّ".

يرد الشعب: "مستحقٌّ وعادل".

وعلى ذلك، فإنَّ الأصل في النَّصِّ الليتورجي السابق ذكره، هو الحوار وليس الرُّشومات. أي الحوار المباشر بين الكاهن والشَّعب. حيث يَنجِه الكاهن إلى ناحية الغرب في مواجهة الشَّعب، ويُجري هذا الحوار الليتورجي السَّحيق في القَدَم، بكامله. وبعد انتهائه، يلتفت إلى الشَّرْق، لبدأ الصَّلَاة، مخاطباً الله الأب بنفس ما نطق به الشَّعب للتَّو: "مستحقٌّ ومستوجب" أو "مستحقٌّ وعادل".

لذلك نجد أنَّ ابن سباع في القرن الثالث عشر، يشرح هذا الحوار الليتورجي هكذا: "يدير الكاهن وجهه إلى الغرب، ويقول: 'الرَّبُّ مع جميعكم'، فيقول له الشَّعب: 'ومع روحك'. ثم يقول لهم الكاهن استفهاماً منهم: 'أين عقولكم؟'، فيقولون: 'هي عند الرَّبِّ' ... ثمَّ يقول لهم الكاهن: 'أشكروا الرَّبِّ'، فيجيبونه قائلين: 'مستحقٌّ ومستوجبٌ وعادل' ..."^(٤).

وما يذكره ابن سباع، يؤمَّن عليه مخطوط الفاتيكان رقم (١٧ قبطي)

٤- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، مرجع سابق، ص ٢٤٧

الذي دُوِّن سنة ١٢٨٨م. فيذكر: ”يقول الكاهن: ’الرَّبُّ معكم‘، يقول الشَّعب: ’ومع روحك‘. يقول الكاهن: ’أين هي قلوبكم؟‘، يقول الشعب: ’هي عند الرَّبِّ‘. يقول الكاهن: ’اشكروا الرَّبِّ‘، يقول الشَّعب: ’مستحقٌّ ومستوجب‘“. وهو أيضاً نفس ما يذكره مخطوط أكسفورد رقم (٣٦٠ هنت).

وهنا يلاحظ القارئ العزيز، أنَّه لا ذكر لأيِّ رشومات. أمَّا البابا غُبريال الخامس، فهو أوَّل من يذكر رشومات مصاحبة لهذا الحوار، أو ربما كان يشرح واحدة من الممارسات الطَّقسيَّة التي عُرفت من قبل زمانه، مصاحبةً لهذا الحوار. فيقول في ذلك: ”عندما يقول الكاهن: ’الرَّبُّ مع جميعكم‘، يرشم الشَّعب مثال الصَّليب. وإذا قال: ’ارفعوا قلوبكم‘، يلتفت للشَّرْق ويرشم الخُدَّام رشمًا واحداً. وإذا قال: ’فلنشكر الرَّبِّ‘، يرشم ذاته رشمًا واحداً. ويعود للشَّرْق ويقول: ’مستحقٌّ وعادل‘...“^(٥).

ولا نستطيع أن نعبر على قول البابا غُبريال، أنَّ الكاهن عندما يقول: ”ارفعوا قلوبكم“، يلتفت إلى الشَّرْق، ثم يعود البابا المذكور فيذكر مرَّةً أُخرى عبارة: ”ويعود للشَّرْق ويقول: مستحقٌّ وعادل“. وهنا يتَّضح عدم انسجام التَّعليمات الطَّقسيَّة التي يوردها، إلَّا إن اعتبرنا أنَّ قوله الأخير بالاتجاه للشَّرْق، يعني أنَّ الكاهن حتى الحوار الثالث والأخير مع الشَّعب، كان لا يزال متَّجهاً ناحية الغرب في مقابل الشَّعب.

أمَّا كتاب الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م، ففي ذكره للرَّشم الثَّاني على الخُدَّام لم يكتف بما ذكره البابا غُبريال الخامس عن هذا الرَّشم، والذي يقول فيه: ”يلتفت للشَّرْق ويرشم الخُدَّام رشمًا واحداً“، بل

٥- البابا غُبريال الخامس، التَّرتيب الطَّقسي، مرجع سابق، ص ٧٧

أضاف بقوله: ”يقول الكاهن وهو يرشم الخُدَّام شرقاً عن يمينه رشماً واحداً“. وكأنه يقول: إنَّ خُدَّام المذبح يقفون عن يمين المذبح فقط، أي عن يمين الكاهن. ورغم هذا وذاك، فإنَّ قول الكاهن عند هذا الرَّشْم الثاني: ”ارفعوا قلوبكم“، هو نداء لكلِّ الشَّعب، وليس للخُدَّام فحسب.

بل إنَّ حولاجي سنة ١٩٠٢م، قد أورد حاشية، يوضِّح فيها كيفية ممارسة هذه الرُّشومات، وهو ما لم يذكره غيره، إذ لم يرد ذلك عند البابا غُبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م). فيقول حولاجي المذكور: ”أمَّا الكاهن، فإنه يضع اللِّفافة التي معه على يده اليُسرى^(٦)، ويأخذ بيده اليُمْنى اللِّفافة التي على القربانة، ويرشم بها الثلاثة رشومات الآتية. وبعد ذلك يبقى اللِّفافتين على يديه في كلِّ القُدَّاس، ما خلا وقت رشومات القربان والكأس، ووقت القسمة وما بعدها...“^(٧).

أي أنَّ الرُّشومات المذكورة، والمصاحبة للحوار اللِّيْتورجي، أصبحت بلفافة الحَمَل. وهنا انقسمت المخطوطات إلى قسمين، القسم الأوَّل يورد الحوار اللِّيْتورجي بدون ذكر لأيِّ رشومات^(٨)، وهو الأكثر شيوعاً. والقسم الثاني منها، يورده مصحوباً برشومات^(٩) كما يذكر البابا غُبريال الخامس، وهو الأقل عدداً. ولكن لم يذكر أيُّ مخطوط، ما يذكره حولاجي سنة ١٩٠٢م، عن أنَّ الرُّشومات تكون بلفافة الحَمَل على وجه الخصوص.

٦- وهي اللِّفافة التي كانت موضوعة على الإبروسفارين على شكل مثلث علامة ختم القبر، وهي التي يرفعها الكاهن أمام عينيه حين يقول: ”بمسرَّتكَ يا الله املا قلوبنا من سلامك...“.

٧- كتاب حولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٣١١

٨- مثل مخطوط (١٣٣ طقس)، ومخطوط (١٣٤ طقس)، ومخطوط (١٤٧ طقس).

٩- مثل مخطوط (١٣٦ طقس).

وهنا ينبغي أن نعرف ما يعنيه وضع اللِّفافة على يدي الكاهن، كما يشرحه لنا البابا غُريال الخامس. فإنَّ أوَّلَ ذكرٍ عنده لوضع لفافة على يدي الكاهن، هو ما يذكره في نهاية الأواشي بعد قول الكاهن: ”أذكر ياربُّ الذين قدَّموا لك هذه القرايين ...“. فيقول في ذلك:

”فإذا قال الشَّمَّاسُ: ’القارئون‘^(١٠)، يقول الكاهن السَّرُّ: ’أذكر أيضاً ياربُّ ...‘^(١١). وبعد ذلك يأخذ الكاهن على يده اليميني لفافة حرير. فإنه من حين يمس الكاهن القرايين بيديه، من حين يقول: ’أخذ خُبْزاً‘ إلى آخر القُدَّاس، لا يمكن أن يشير بيديه إلى الشَّعب، بيديه (أي بيديْن) مكشوفتين، لكن ملفوفتين بلفافة حرير إجلالاً وتعظيماً لما لمس. فإذا فرغ من قراءة هذا السَّرِّ، يلف يده اليميني بلفافة حرير، ويشير بها إلى الغرب للشَّعب، ويقف مُجانباً، ويده اليسرى مبسوطة على الصَّيِّئة، طالباً إلى المسيح، ويتلو البركة إلى آخرها^(١٢). وفي ضمن ذلك، يقول الشَّمَّامسة، التَّرحيم للآباء البطارقة الدَّارجين، إلى آخرها ...“^(١٣).

مَّا سبق ذكره، يتَّضح لنا، أن طقس البابا غُريال، يعني ما يلي:
- إنَّ الكاهن قبل أن يقول: ”أخذ خُبْزاً على يديه ...“، يُصَلِّي بيديْن مكشوفتين، وهو ما تكرر في غير موضع من كتابه ”التَّرتيب الطَّقسي“.

- الرُّشومات المصاحبة للحوار اللِّيْتورجي في بداية القُدَّاس، هي

١٠- ما بين القوسين ’ في هذه الفقرة، يرد في النَّصِّ بالقبطيَّة فقط.

١١- وهو بداية التَّرحيم: ”أذكر أيضاً ياربُّ كلَّ الذين رقدوا، وتنيَّحوا في الكهنوت، والذين في طغمة العلمانيين ...“. وهو يُقال سراً، لذلك يسمِّيهِ البابا غُريال، ”السَّرُّ“.

١٢- سأشرح ذلك الأمر بالتَّفصيل، عند الحديث عن الأواشي والتَّرحيم.

١٣- البابا غُريال الخامس، التَّرتيب الطَّقسي، مرجع سابق، ص ٨٢

رشومات بيدين مكشوفتين.

- إنَّ وضع اللِّفافة على يدي الكاهن، يكون فقط حين يتَّجه الكاهن ليشير بها ناحية الشَّعب، وذلك في المراحل المتأخِّرة من القدَّاس، أي بعد الانتهاء من كلمات التَّأسيس: ”أخذ خُبزاً على يديه...“.

- إنَّ اليد اليمنى فقط، والتي يتَّجه بها الكاهن ناحية الشَّعب، هي التي يكون عليها لفافة حرير، بينما يده اليسرى، تكون بدون لفافة، ومبسوطة على الصَّينية.

وهذا هو السَّبب، الذي لأجله توضع اللِّفافة على يدي الكاهن. وهذا كلُّه هو بحسب طقس البابا غُبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م)، وهو الطَّقْس الأساسي الذي نقل عنه حولاجي سنة ١٩٠٢م، كلُّ ما ورد به. بل إنَّ ما سبق ذكره من قول البابا غُبريال الخامس، قد أورده الخولاجي المذكور بحرفه^(١٤).

ولقد ورد في حولاجي الأنبا بطرس، ما يلي: ”وارشم الشَّعب أولاً، ثمَّ الخُدَّام، وبعد ذلك ارشم ذاتك آخر الكلِّ، متذكِّراً أنك تقف لخدمة العبيد رفقاتك، وأنه لا يجوز لك أن تسبق غيرك، حتى في الرُّشومات، مع أهما نصيبك. ولكن من يؤخِّر ذاته، ينال هدوء وسلام الاتضاع“^(١٥).

لقد انصرفت التَّعليمات الطَّقْسيَّة، إلى شرح طريقة الرُّشومات، أكثر بكثير من اهتمامها بالحوار الليتورجي نفسه، والذي كان يدور مواجهة بين الكاهن والشَّعب، حتى نهايته. ومن ثمَّ، فقد أضافت التَّعليمات

١٤- كتاب الخولاجي المقدَّس، طبعة سنة ١٩٠٢م، ص ٣٦٦؛ طبعة ٢٠٠٢م، ص ٢٥٢

١٥- معاني رشم الصَّليب، مرجع سابق، ص ٧٩

الطَّقْسِيَّة، أنه إذا كان الأب البطريرك أو الأسقف حاضراً، ولم يكن خادماً، فهو الذي يرشم الشَّعب والخدم وذاته بالصَّليب وهو صامت^(١٦). أمَّا الكاهن الخدم، فهو الذي يقول كلام الرُّشومات بدون رشم، إلَّا على ذاته فقط. ونفس الشَّيء، يُعمل عند أجيوس.

أصل الرُّشومات التي صاحبت الحوار الليتورجي

فما هو إذاً أصل هذه الرُّشومات المصاحبة لهذا الحوار الليتورجي؟ إنَّ هذه الرُّشومات، هي ذات أصول سريانيَّة قديمة، لم تنتقل إلى الطَّقْس القبطي، إلَّا في زمن متأخِّر.

ففي كتاب المراسيم الرِّسوليَّة - ذو التَّقليد السِّرياني - ومنذ النِّصف الثَّاني من القرن الرَّابع الميلادي، نقرأ ما يلي:

”يبدأ رئيس الكهنة أن يُصَلِّي سرّاً مع الكهنة، ويرتدي لباساً بهيماً، ويقف عند المذبح، ويرشم علامة الصَّليب باليد على جبهته ويقول:

’نعمة الله ضابط الكل، ومحبَّة ربِّنا يسوع المسيح، وشركة الرُّوح القدُّس، تكون مع جميعكم‘.

ويقول الجميع باتفاق الأصوات: ’ومع روحك‘.

يقول رئيس الكهنة: ’ارفعوا القلب‘.

و(يقول) الجميع: ’هو عند الرَّب‘.

و(يقول) رئيس الكهنة: ’فلنشكر الرَّب‘.

و(يقول) الجميع: ’مستحق وعادل‘“ (المراسيم الرِّسوليَّة ٨: ١٢، ٤: ٥).

وممَّا سبق، يتَّضح أن الرِّشم المصاحب لهذا الحوار الليتورجي، كان

١٦- ولاحظ هنا أن الرُّشومات تتم بدون لفافة الحَمَل في هذه الحالة.

يُجرّيه مترس الصلاة على جبهته هو، عند قوله الجزء الأول من الحوار.

ثم انتقلت عادة الرّشم عند السّريان، بأن يرشم الأسقف أو الكاهن المقرّب، إشارة الصّليب على صدره، مبتدئاً من جبهته، ثم صدره، ثم كتفه اليسرى ثم كتفه اليمنى. وبعد ذلك يرشم إشارة الصّليب على الجماعة بالصّورة المذكورة، أي من فوق إلى أسفل، ومن الجهة اليسرى إلى اليمنى^(١٧). وهكذا انتقلت عادة الرّشم من الطّقس السّرياني إلى الكنائس الأخرى شرقاً وغرباً. أمّا كنيسة القسطنطينية، فإنها ترشم علامة الصّليب من فوق إلى أسفل، ومن اليمين إلى اليسار. وقد سرت هذه العادة منها إلى السّريان المشاركة^(١٨).

أمّا أقدم إشارة تأتينا عن الرّشومات التي يرشمها الكاهن على نفسه، وعلى الشّماسة القائمين على يمين المذبح ويساره، وعلى الشّعب، في هذه الحوار اللّيتورجي، فتأتينا من عند القديس يعقوب الرّهاوي (٦٣٣-٧٠٨م) أسقف إديسا Edessa^(١٩).

وبعد هذه المقدّمة في الشّرح الطّقسى لهذا الحوار اللّيتورجي، نأتي إلى تفصيلاته واحدة فواحدة.

الرّبُّ مع جميعكم

هذه التّحيّة المعروفة في كافة التّقاليد اللّيتورجية شرقاً وغرباً، هي تحيّة تقليديّة متوارثة، انتقلت إلى الكنيسة المسيحية من تقليد يهودي قديم، يأتي في صيغة «الرّبُّ معكم» (راعوث ٢:٤). أمّا إجابته التّقليديّة فهي:

١٧- البطريرك إغناطيوس أفرام الثّاني، مرجع سابق، ص ٢٤٦

١٨- نفس المرجع، ص ٢٤٦

١٩- نفس المرجع، ص ٢٤٦، حاشية رقم ١

”يباركك الرَّبُّ“. ولهذه التَّحِيَّةُ التَّقْلِيدِيَّةُ، صِيغَةٌ أُخْرَى، قَرِيبَةُ الْمَعْنَى إِلَى هَذِهِ الصِّيغَةِ السَّابِقَةِ، تَقُولُ: «بِرُكَّةِ الرَّبِّ عَلَيْكُمْ»، و«بَارَكْنَاكُمْ بِاسْمِ الرَّبِّ» (مزمو ١٢٩: ٨).

وهذه التَّحِيَّةُ اللَّيْتُورَجِيَّةُ الَّتِي يَقُولُهَا مَتْرَسُ الصَّلَاةِ لِلشَّعْبِ، تَوْجَدُ فِي الشَّرْقِ الْمَسِيحِيِّ عَلَى ثَلَاثَةِ أَشْكَالٍ:

الشَّكْلُ الْأَوَّلُ: يَتَكَوَّنُ مِنْ كَلِمَةٍ مَفْرَدَةٍ هِيَ: ”الرَّبُّ - Κύριος“، وَذَلِكَ فِي عِبَارَةٍ: ”الرَّبُّ مَعَ الْجَمِيعِ“، وَهُوَ تَقْلِيدُ كَنِيسَةِ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ.

وَلَقَدْ حَفِظَتْ كَنِيسَةُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ الصِّيغَةَ اللَّيْتُورَجِيَّةَ الْقَدِيمَةَ الْأَصْلِيَّةَ $\text{Ὁ Κύριος μετὰ πάντων}$ أَي: ”الرَّبُّ مَعَ الْجَمِيعِ“، مَكْتُوبَةً هَكَذَا بِنَصِّهَا الْيُونَانِي، وَلَكِنْ بِحُرُوفِ قِبْطِيَّةٍ، فِي أَقْدَمِ مَخْطُوطَاتِ الْخَوْلَاجِيَّاتِ الْقِبْطِيَّةِ، كَمَا فِي مَخْطُوطِ الْفَاتِيكَانِ رَقْمِ (١٧ قِبْطِي)، وَمَخْطُوطِ أَكْسْفُورْدِ رَقْمِ (٣٦٠ هَت). بَلْ إِنَّ هَذِهِ الصِّيغَةَ عَيْنَهَا، نَجَدُهَا عِنْدَ الْبَابَا غُرِيَالِ الْخَامِسِ (١٤٠٩-١٤٢٧ م). وَلَكِنْ مَا نَلَاظُهُ، هُوَ أَنَّ تَرْجُمَةَ هَذِهِ الصِّيغَةَ اللَّيْتُورَجِيَّةَ إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، كَانَتْ تَرْجُمَةً غَيْرَ حَرْفِيَّةٍ. فَقَدْ تُرْجِمَتْ إِلَى: ”الرَّبُّ مَعَ جَمِيعِكُمْ“، وَليْسَ: ”الرَّبُّ مَعَ الْجَمِيعِ“، كَمَا تَرَدُّ الصِّيغَةُ فِي النَّصِّ الْقِبْطِيِّ لَهَا، نَقْلًا عَنِ الْيُونَانِي.

E. أمَّا القُدَّاسُ الْبَاسِيلِي الْيُونَانِي كَمَا ذَكَرَهُ رَنُودُوتُ Renaudot $\text{Ὁ Κύριος μετὰ πάντων ὑμῶν}$ أَي: ”الرَّبُّ مَعَ جَمِيعِكُمْ“. وَتَعْبِيرُ ”جَمِيعِكُمْ“ نَجَدُهُ كَذَلِكَ فِي الْقُدَّاسِينَ الْغُرِيغُورِيِّ وَالْكِيرْلُسِيِّ الْقِبْطِيِّينَ.

وَلَيْسَ هُنَاكَ فَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ قَوْلِ الْكَاهِنِ: ”الرَّبُّ مَعَ الْجَمِيعِ“، وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ”الرَّبُّ مَعَ جَمِيعِكُمْ“، لِأَنَّ مَضْمُونَ التَّعْبِيرِ الَّذِي يَقُولُهُ الْكَاهِنُ

”الرَّبَّ مع الجميع“، يعني تحديداً ”مع جميعكم“. لأنَّ مرد الشعب الحتمي، والذي يعقب هذه التَّحِيَّة، هو: ”ومع روحك“. وإلاَّ لو كان قول الكاهن: ”الرَّبَّ مع الجميع“، يعني أنَّ الرَّبَّ معه ومع الشعب أيضاً، لما كانت هناك ضرورة لمرد الشعب: ”ومع روحك“، أي ”ومع روحك الرَّبَّ أيضاً“.

تماماً كما في قول الكاهن Εἰρήνη πᾶσιν (إيريني باسي)، أي ”السَّلام لكلُّ“ أو ”السَّلام للجميع“، والتي تُترجم إلى العربية دائماً: ”السَّلام لجميعكم“. لأنَّ مرد الشعب الحتمي، والذي يعقب هذا السَّلام، هو دائماً: ”ولروحك“، أي ”ولروحك هذا السَّلام“.

هنا تبرز مكانة مشاركة الشعب في الصَّلوات الليتورجية وأهميتها. فالشَّعب كلُّه مجتمعاً معاً حول المذبح المقدَّس، يمكنه أن يخاطب الكاهن معطياً إياه السَّلام، وطالباً لأجله معية الرَّب. وهذه العلاقة البديعة والوثيقة بين الكاهن والشَّعب، هي التي تؤهِّل الكنيسة كلَّها، للارتقاء إلى السَّماء. وهنا لا ننسى الطَّلبة الليتورجية الهامة التي تقول: ”وصلواهم التي يصنعونها عنَّا، وصلواتنا نحن أيضاً عنهم، اقبلها إليك على مذبحك المقدَّس النَّاطق السَّمائي ...“.

أمَّا في كنيسة روما، كما في كنيسة ميلان، فتزد فيهما هذه التَّحِيَّة الليتورجية، في صيغة مبسَّطة، هي: ”الرَّبَّ معكم – Dominus vobiscum“. وهذه الصِّيغة لها أصل يوناني في التَّقْلِيد الرِّسُولِي لهيبوليتس، هو: $\text{Ὁ Κύριος μεθ' ὑμῶν}$ أي: ”الرَّبَّ معكم“. فنقرأ في التَّقْلِيد الرِّسُولِي: ”وبعد ذلك، يصلِّب على جباههم بزيت المسحة، ويُقبِّلهم قائلاً: ”الرَّبَّ معكم“ $\text{Ὁ Κύριος μεθ' ὑμῶν}$. ويقول أيضاً الذين تعمَّدوا: ”ومع روحك“. هكذا يُفعل بمن يتعمَّد“ (التَّقْلِيد الرِّسُولِي ٢١:١٩).

الشكل الثاني: تأتي فيه هذه التَّحِيَّةُ اللَّيتورجيَّةُ، في صيغة تختص بالثالوث القدوس، ولكنها تبدأ بأقنوم الابن، أي باسم المسيح، امتداداً لما ورد في رسالة كورنثوس: «نعمة ربنا يسوع المسيح، ومحبة الله، وشركة الرُّوحِ القُدُّسِ مع جميعكم» (٢ كورنثوس ١٣: ١٤).

وهذه الصيغة قد تبناها التقليد البيزنطي - مع تعديل طفيف - حيث تأتي هكذا: "نعمة ربنا يسوع المسيح، ومحبة الله الآب، وشركة الرُّوحِ القُدُّسِ، فلتكن مع جميعنا". وقد انتشرت فيه انتشاراً واسعاً. إلا أن أصلها ليس من القسطنطينية، بل من أنطاكية. حيث استخدمها القديس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧ م) في عظاته^(٢٠).

الشكل الثالث: ويرد فيها - أي في هذه التَّحِيَّةُ اللَّيتورجيَّةُ - ذكر الثلاثة أقانيم، ولكنها تبدأ بأقنوم الله الآب.

فليتورجيَّةُ القديس يعقوب أخي الرب (الطَّقس السَّرياني)، سواءً في نصّها اليوناني أو السَّرياني، يرد فيها هذه الصيغة هكذا: "محبة الله الآب، ونعمة الابن الوحيد، وشركة الرُّوحِ القُدُّسِ، تكون مع جميعكم"^(٢١).

أمّا العالم أندريه تاري André Tarby فقد أورد هذه الصيغة بحسب التقليد السَّرياني القديم هكذا: "محبة الله الآب، ونعمة ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، وشركة الرُّوحِ القُدُّسِ، تكون مع جميعكم"^(٢٢).

ولقد نشأت هذه الصيغة في أورشليم. ويعطينا الكتاب الثامن من

20- PG 50, C. 458.

٢١ - البطريرك إغناطيوس أفرام الثاني، مرجع سابق، ص ٢٤٥

22- André Tarby, *La prière eucharistique de l'Eglise de Jérusalem*, 1972, p. 25-70.

المراسيم الرسولية Apostolic Constitutions صيغة منمقة ومغايرة لها نوعاً، مع بعض الإضافات الطفيفة. والتقليد الأرمني له صيغة مشابهة لهذه الصيغة.

وهذه التحيّة التقليديّة القديمة، لم تكن تُقال في صلاة الإفخارستيا فقط، بل كانت هي التحيّة التي يقوها الأسقف في أيّ وليمة أغابي يحضر فيها مع جموع الشعب الحاضرين. وكتاب التقليد الرسولي الذي دُوّن قبل سنة ٢٣٥م، يشرح لنا هذا الطقس البديع في حالة إقامة عشاء للجماعة في المساء، فيقول: "عندما يأتي المساء، يكون الأسقف هناك، وليحضر الشمّاس السّراج. ويقف الأسقف في وسط المؤمنين. وقبل أن يشكر، يقول: 'الرّب معكم'. ويقول الشعب أيضاً: 'ومع روحك'. ويقول الأسقف: 'فلنشكر الرّب'. ويقول الشعب: 'مستحق ومستوجب، له العظمة والرّفعة مع المجد'. وهو لا يقول: ارفعوا قلوبكم، لأنّها تقال في القربان" (٢٦:١٦-٢١).

وفي جميع الليتورجيات، تكون الإجابة هي: "ومع روحك".

ارفعوا قلوبكم

ويأتي هذا العنصر الثاني من الحوار، تحت ثلاثة أشكال، لا يوجد شكل منها كاختصار لآخر. وهو عنصر يختص بصلاة الإفخارستيا، وقُدّاسات اللقّانات فحسب. ولا يقال في أيّ اجتماع ليتورجي آخر. وهذه الأشكال الثلاثة هي:

الشكل الأوّل: يكون في قول الكاهن:

"(ارفعوا)^(٢٣) القلوب إلى فوق - Anw tàs καρδιας"

٢٣- كلمة "ارفعوا" لازمة هنا، لترجمة العبارة اليونانية المذكورة. لأنّ الكلمة

وهي الصَّيْغَةُ التي ظهرت في كنيسة أورشليم، وقد عرفناها من العظات التي ألقاها القُدَّيس كيرلس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م) لطالبي المعمودية^(٢٤). كما ذكرها أيضاً أنسطاسيوس السِّينائي^(٢٥). ولكن الاحتمال الأقرب جداً، أن أصولها تعود إلى كنيسة الإسكندرية.

وفي الليتورجية الأرمينية، يوضع في فم الشمَّاس بدلاً من الكاهن، النِّداء الموجه إلى الشَّعب قائلاً: "ارفعوا بخوف، قلوبكم إلى الرَّب"^(٢٦).

الشَّكل الثاني: يكون في قول الكاهن:

"(ارفعوا) العقل إلى فوق - Ἄνω τὸν νοῦν".

وهو تقليد أنطاكي، حيث يرد هذا الشَّكل في الكتاب الثامن من المراسيم الرسولية Apostolic Constitutions .

ويستعمل السريان المشاركة، أي الآشوريون، هذا التَّعبير في ليتورجية أداي وماري.

وفي المقالة التاسعة للقُدَّيس يوحنا ذهبي الفم عن التَّوبة، يستشهد بمناداة الشمَّاس للمؤمنين بقوله: "لنرفع عقلنا وقلوبنا" إلى الله.

Ἄνω σχῶμεν ἡμῶν τὸν νοῦν καὶ τὰς καρδίας.

وذلك النِّداء، لا تعرفه سوى ليتورجية مار يعقوب أخي الرَّب السريانية. أمَّا سائر الليتورجيات، فيكون النِّداء فيها برفع القلوب

اليونانية τὰς καρδίας (أي القلوب) تأتي في صيغة المفعول به، وليس هناك فعل واضح في الجملة، بل هو فعل مُضمَر.

24- PG 33, C. 1112.

25- PG 89, C. 837A

٢٦- البطريك إغناطيوس أفرام الثاني، مرجع سابق، ص ١٩٥

وليس العقول^(٢٧).

الشَّكْلُ الثَّالِثُ: ويكون في صيغة:

”الآذان للرَّبِّ – Aures ad Dominum“.

وهو ما يستخدمه الطُّقس الأسباني القديم (أي الطُّقس الموزارابي). ولكن هذا النِّداء الأخير، قد شدَّ عن كلِّ تقليد الكنيسة. لأنَّ القلب في اللاهوت الأبائى المسيحي القديم، وكذلك في الأدب الفرعوني، هو الذي يؤدِّي وظيفة الفهم والمعرفة، ومنه نبع الحكمة.

ولقد تطوَّر الشَّكْل الأوَّل إلى:

”لنمسك القلوب مرفوعة – Anw σχῶμεν τὰς καρδίας“.

وقد وردت هذه الصِّيغة في مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex الذي يحوي النِّص اليوناني للقدَّاس المرقسي، بحسب تقليد الكنيسة القبطية.

والفرق هنا، هو أنَّ النِّداء: ”القلوب إلى فوق“، ربما يعني رفعها في هذه اللَّحظة عينها فقط. أمَّا النِّداء: ”لنمسك القلوب مرفوعة“، فصار يعني رفعها إلى فوق، والاحتفاظ بها مرفوعة دائماً.

وقد تطوَّرت هذه الصِّيغة أيضاً إلى:

”لنمسك قلوبنا مرفوعة – Anw σχῶμεν τὰς καρδίας ἡμῶν“.

أي مع إضافة ضمير جمع المخاطبين ἡμῶν. وقد دخلت هذه الصِّيغة في التَّقْلِيد الأنطاكي.

٢٧- البطريرك إغناطيوس أفرآم الثاني، مرجع سابق، ص ١٩٥

وفي مصر، تنافست صيغتان لتحتل أحدهما مكان الصَّدارة؛ الأولى هي: "لنرفع قلوبنا - Ἄνω ἡμῶν τὰς καρδίας"، أمَّا الثانية فهي: "أرفعوا قلوبكم - Ἄνω ὑμῶν τὰς καρδίας"، وهذه الصَّيغة الأخيرة هي التي انتشرت في كنيسة مصر.

وهاتان الصَّيغتان هما في الحقيقة امتدادٌ للصَّيغَة الأولى: "القلوب إلى فوق"، والتي ربما تكون هي الصَّيغَة الأصيلَة التي نشأت في الإسكندريَّة. وذلك لأنَّ هذه الصَّيغَة، هي صيغَة أصيلة في التَّقْلِيدِ الرِّسُولِيِّ لِهَيْبُولَيْتِس، كما نراها أيضاً في طقس كنيسة روما، وكنيسة ميلان. وهنا أيضاً قد نقلت كنيسة روما عن كنيسة الإسكندريَّة، مقدِّمة الأنافورا. وعلى ذلك، فنحن الآن أمام نقطة التقاء بين الإسكندريَّة وروما، وأورشليم أيضاً مهد الكنيسة المسيحيَّة^(٢٨).

ويقول القُدَّيسُ أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م):

[إِنَّ النِّدَاءَ: "أرفعوا قلوبكم"، هو نداءٌ عام في جميع كنائس العالم، شرقاً وغرباً].

وُتجاوب الجماعة في جميع اللِّيْتورجِيَّات: "هي عند الرَّبِّ"، ما خلا السُّرِّيَّانِ المِشارِقَة، فيجاوبون: "هي عندك يا إله إبراهيم واسحق ويعقوب، أيها الملك المجدِّ"^(٢٩).

فبدء القُدَّاسِ الإلهي، يعني أننا بدأنا الصُّعود إلى السَّمَاءِ، حيث ذبيحة الابن الوحيد، قائمة وسط عرش الله^(٣٠). لأننا إذا وقفنا في هيكلك

28- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 84.

٢٩- يرد مثل هذا الابتهاال في صلاة منسَّى الملك.

٣٠- انظر: رؤيا ٦:٥

المقدس يارب، نُحسب أننا قائمون في السماء. وعندما يجيب الشعب: "هي عند الرب"، يعني أننا بكليتنا، قد صرنا عند الرب ومعه. وإن من ينال نعمة رفع قلبه في هذه اللحظة بالذات، هو من اعتاد أن يتجه صوب السماء طوال حياته.

فلنشكر الرب

هذه هي بداية صلاة الشكر الكبرى، والتي بسببها يُسمى الطقس كله بصلاة الشكر، أو بسر الشكر. وهذه الصيغة الليتورجية، كانت تُقال في الطقس العبري في نهاية الوليمة على كأس البركة، وهي مرفوعة في يد رئيس المتكأ. وكان لا يصح أن تكون حواراً، إلا إذا كان عدد الحضور لا يقل عن مائة شخص. فهي نداء لصلاة شكر جماعي. ومن ثم، فهي الصيغة القديمة التي كان يُرددّها المجمع اليهودي.

أما إذا كان العدد في حدود عشرة أشخاص، فتكون صلاة الشكر الصغرى، والتي ليس لها مرد^(٣١).

إن صلاة الشكر اليهودية التي هي مثل صلاة الشكر المسيحية تماماً يسبقها دعاء invitation صيغته في ليتورجية روما هي: "فلنشكر الرب إلهنا"، هي ترجمة حرفية لما أمر به كتاب المشنا Mishna عندما يجتمع على الأقل مائة شخص، ليحتفلوا بأيّ وليمة يهودية عادية. وطبيعياً فإن محتويات جديدة قد أُلحقت على الصلاة القديمة التي كانت تُقال في أيّ وليمة يهودية عادية، بعد أن أصبحت تلك الصلاة القديمة هي الصلاة

٣١- مثل صلاة الشكر التي تُقال للتّقدّيس على الكأس، في طقس تقديم الحَمَل. وهي: "فلنشكر صانع الخيرات ..."، وهي بدون مرد مباشر.

Cf. A. Baumstark, *op. cit.*, p. 47.

المقدّسة والمكرّسة للوليمة السّرائريّة، التي هي الذّبيحة المقدّسة (الإفخارستيّا)، إذ نجدّها في نصٍّ وحيد، ورد في الصّلاة الثّالثة من الذّيداحي، في كلماتها الافتتاحيّة. ونشير هنا إلى الأنافورا القديمة التي وردت في التّقليد الرّسولي لهيبوليتس. وهذه الصّيغة الطّقسيّة، هي الصّيغة الأوّليّة لصلاة الشّكر الكبري، أي الصّيغة التي اشتقت منها كلُّ الصّيغ الإفخارستيّة (أي صلوات الشّكر)، التي أتت بعد ذلك^(٣٢).

يقول القدّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م):

[فلنشكره، لأنّه لو لم يهبنا نعمته، لبقيت قلوبنا متشبّثة بالأرض. ها أنتم تشهدون بهذا وتقولون: 'مستحقّ وعادل' أن نشكر ذاك الذي رفع قلوبنا، إلى حيث يوجد رأسنا].

وتتفق جميع اللّيتورجيّات على صيغة: "فلنشكر الرّب"، ما عدا ليتورجيّة أداي وماري للسّرّيان المشاركة (النّساطرة)، حيث يقول الكاهن فيها: "يقربّ القربان لله، ربّ الجميع".

مستحقّ وعادل

هذا المراد: "مستحقّ ومستوجب"، كما في ترجمته العربيّة القديمة الأكثر دقّة، أو "مستحقّ وعادل"، وهي ترجمته العربيّة التي ظهرت في العصور الوُسطى، هو مرادٌ قديمٌ جداً، معروفٌ في كافّة أنحاء العالم المسيحي، شرقاً وغرباً بلا استثناء. ومع ذلك، فليس له نموذجٌ يهودي يناظره، لأنّه مراد لا يعرفه الجمع اليهودي. أي أنّ منشأه وأصله، جاء من

32- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 47.

العالم اليوناني الهليني، ودخل لغة المسيحية المبكرة في مهد نشأتها^(٣٣).

ويخطئ البعض في فهم مضمون هذا المرد، ولاسيما بعدما صارت ترجمته الشائعة هي: "مستحق وعادل". إذ ينسبون إلى الله الاستحقاق والعدل. ويكون هذا الأمر صحيحاً فقط، إن كان المرد في اليونانية في صيغة الفاعل المفرد المذكر أي Ἀξιός και δίκαιος (أكسيوس كي ذيكويس). ولكن هذا المرد في كافة الليتورجيات هو Ἀξιόν και δίκαιον (أكسيون كي ذيكيون)، في صيغة الفاعل المفرد المحايد.

ومن ثم، فالمرء ليس صفة موجهة إلى الرب، ولكنه موجه إلى الشكر نفسه، أي: "إنه أمر واجب ولائق أن نشكره"، أو: "إنه مستحق وعادل أن نشكر الله".

وفهم المرد يأتي بسهولة من مجريات الحوار بين الكاهن والشعب. فحين يقول الكاهن للشعب: 'فلنشكر الرب'. يجيب الشعب: 'إنه واجب ولازم أن نشكره'. هذا هو معنى المرد في نصه اليوناني.

وحين يأخذ الكاهن بادئة الصلاة نفسها من ذات مرد الشعب، ليتوجه بها إلى الله ويخاطبه بقوله: "مستحق وعادل..."، فهو يقول: إنه "واجب ولائق" أو: "واجب ولازم"^(٣٤) أي: "إنه واجب ولازم أن نسبحك ونباركك ونخدمك ونسجد لك ونمجدك...". أي أن كلمات المرد التي التقطها الكاهن في فم الشعب، ليبدأ بها الصلاة الإفخارستية، هي تقرير حال. وإلا لو كانت كلمتا "مستحق وعادل" تأتيان كصفتين

33- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 82.

٣٤- كما في الترجمة العربية لمخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex.

مختصَّتين بالله، لما استقام المعنى في صلاة الكاهن^(٣٥).

وهنا يضع الكاهن اللِّفائف على يديه أثناء الصَّلَاة. وقد ورد في خولاجي الأنبا بطرس ما يلي: "وعلة وضع اللِّفائف على اليدين أثناء الصَّلَاة بعد الصُّلح، هي أن الكاهن يستر يديه، معلناً أن اليدين الطَّاهرتين المحيَّتين، هما يدا ربنا يسوع المسيح. وأن نعمته الإلهية، هي التي تخدم الآن. وأن الذي يُعطي النِّعمة، هو الابن الوحيد رئيس الكهنة الحقيقي، الذي وحده له الكهنوت. وهكذا يتم قول الرِّسول: إنا بلا كفاءة، نخدم هذا العهد الأفضل"^(٣٦).

٣٥- الذي سبَّب هذا اللبس في فهم معنى المرد هو صعوبة معرفتنا لقواعد اللُّغة العربيَّة. فقد كان من السَّهل أن نفهم مضمون المرد، لو أن كلماته هي: "مستحق (بفتح الحاء) ومستوجب (بفتح الواو)". ولكنَّها لا تأتي هكذا أبداً في اللُّغة العربيَّة، لأنَّها في هذه الحالة صارت اسم مفعول. واسم المفعول في اللُّغة العربيَّة هو اسم مشتق يدلُّ على معنى مجرد غير دائم، أي لا يلازم صاحبه (التَّحو الوافي ص ٢٦٠). وإن جاء المرد: "مستحق (بكسر الحاء) ومستوجب (بكسر الجيم)"، فهو لا يعني كذلك أنه اسم فاعل، لأنَّ اسم الفاعل في اللُّغة العربيَّة هو اسم مشتق، يدلُّ على معنى مجرد حادث (أي عارض يطرأ ويذول) على فاعله (التَّحو الوافي ص ٢٣٦). ولكن المرد هنا جاء "صفة مشبَّهة". والفرق بين الصِّفة المشبَّهة واسم الفاعل، هو أن الأولى - أي الصِّفة المشبَّهة - رغم مظهرها الذي يوهمنا بأنَّها اسم فاعل، إلا أنَّها تعني في حقيقتها معنى ثابت، وهو ما لا ينطبق على اسم الفاعل. فنقول مثلاً: الكوكب مظلم السُّطح. ومظلم هنا صفة مشبَّهة، وليست اسم فاعل، لأنَّها صفة ثابتة. فالصِّفة المشبَّهة هي اسم مشتق، يدلُّ على ثبوت المعنى المجرد لصاحبه في كلِّ الأزمنة، ثبوتاً عاماً أي الاعتراف بتحقيقه ووقوعه، شاملاً الأزمنة الثلاثة المختلفة، فلا يَحْتَصُّ ببعضها دون البعض الآخر. فهو أمرٌ دائمٌ ملازمٌ لصاحبه (أي الموصوف)، طيلة حياته. وثبني الصِّفة المشبَّهة من غير الثلاثي (كما في حالتنا هذه "مستحق")، قياساً على أوزان اسم الفاعل، إذا قصد به الثبوت والاستمرار، لا معنى الحدوث والتَّجدُّد.

انظر: معجم قواعد اللُّغة العربيَّة، ص ٨٤

٣٦- معاني رشم الصَّليب، مرجع سابق، ص ٧٤

العناصر التي تحويها صلاة الشُّكر الكُبرى

”صلاة الشُّكر الكُبرى“، هي مقدّمة الأنافورا. وهي تُدعى في النّص اليوناني للقُدّاس الباسيلي 'Αρχὴ τῆς προσκομιδῆς أي ”بدء التّقدمة“. وهي الصّلاة التي يقولها الكاهن، وهي تسبق التّسبيحة الشّاروبيميّة مباشرة.

وتحتوي صلاة الشُّكر الكُبرى هذه، على أربعة عناصر أساسيّة، وهي العناصر التي تُكوّن في مضمونها صلاة الإفخارستيا كلّها، باعتبارها إفخارستية شكر مقدّمة لله الآب، بواسطة ابنه يسوع المسيح. ويُستفاد من كلام القديس يوستينوس الشهيد (١٠٠-١٦٥م)، أن صلاة الإفخارستيا من أوّلها إلى آخرها، توجّه إلى الله الآب. وفي ذلك تتفق جميع الليتورجيات، ما خلا ليتورجية القديس غريغوريوس الثيولوجوس في الطّقس القبطي، حيث أنّها تخاطب الله الابن في نصّها اليوناني والقبطي على السّواء.

أمّا ليتورجية السّريان المشاركة، المنسوبة إلى ”أداي وماري“ مبشّري الشّرق، فإنّ بعض الصّلوات فيها، موجهة إلى الثّالوث، وبعضها موجهة إلى الابن (٣٧).

أمّا هذه العناصر الليتورجية التي تحويها صلاة الإفخارستيا أي صلاة الشُّكر، فهي بحسب التّرتيب التّالي: شكر الله الآب على عمله في الخليقة، ثمّ تحسُّد ابنه الوحيد، ثمّ آلام الابن، ثمّ رواية خميس العهد والتي تأتي دائماً بعد رواية الآلام.

وهذا التَّرتيب، نجدُه متَّبِعاً في جميع اللَّيتورجِيَّات القديمة باستثناء ليتورجِيَّة القُدَّيس سراييون، التي لا تتبع هذا التَّرتيب. أمَّا ليتورجِيَّة هيبوليتس، وهي أقدم نصِّ ليتورجي وصل إلينا، فقد أوردت هذا التَّرتيب في صورته المختصرة والبسيطة.

فعن العنصر الأوَّل، أي الخليقة، تقول: ”نقدِّم لك الشُّكر يا الله، بفتاك الحبيب يسوع المسيح، الذي أرسلته لنا في نهاية الأزمنة، مخلصاً وفادياً، ورسول إرادتك. الذي هو كلمتك غير المنفصل عنك، الذي به خلقت كلُّ الأشياء“ (التَّقليد الرِّسولي ٤: ٤، ٥).

وعن العنصر الثَّاني، تقول ليتورجِيَّة هيبوليتس: ”وبمسرَّتكَ أرسلته من السَّماء إلى بطن العذراء، وتجنَّس، الذي حُمِلَ به فيها، واستُعِلن ابنك المولود من الروح القُدَّس، والعذراء“ (التَّقليد الرِّسولي ٤: ٦).

وعن العنصر الثَّالث، تقول: ”الذي تمَّ إرادتك، وأعدَّ لك شعباً مقدَّساً، وإذ بسط يديه للألم، أعتق الذين قد آمنوا بك من الألم. الذي أسلم ذاته للألم طواعية، ليبيد الموت، ويحطِّم قيود إبليس، ويطأ الجحيم تحت قدميه، ويقود الأبرار إلى التُّور، ويؤسِّس النِّظام، ويُظهر القيامة“ (التَّقليد الرِّسولي ٤: ٧، ٨).

وعن العنصر الرَّابع، تقول: ”أخذ خُبْزاً وشكر، قائلاً: خذوا كُلوا، هذا هو جسدي، الذي يُكسر لأجلكم، لمغفرة الخطايا. وهكذا الكأس أيضاً، قائلاً: هذا هو دمي الذي يُسْفك لأجلكم“ (التَّقليد الرِّسولي ٤: ٩).

ويُعقَّب كتاب التَّقليد الرِّسولي على صلاة الشُّكر السَّابق ذكرها بقوله: ”ويشكرُ الأسقُف كما سبق وقُلنا. ليس من الضَّروري تماماً أن يتلو نفس الكَلِمات التي قُلناها، كي يُجهد نفسه ليقولها عن ظهر قلب، مقدِّماً

شكراً لله، لكن كل واحد يُصلي على قدر قوته. وإذا كان واحداً يقدر أن يُصلي طويلاً بكفاية، ويقول صلاة جليلة، فهذا صالح. أمّا إن كان واحداً، عندما يُصلي، يقول صلاة محدّدة، فلا يمنعه أحد، بشرط واحد، هو أن يقول صلاة صحيحة مستقيمة“ (التقليد الرسولي ١٠:٣-٥).

ويؤيد هذا الكلام، ما سبق ذكره في الديداحي - تعليم الرسل - إذ بعد أن تورد الديداحي نصّ صلاة شكر بدايتها: ”نشكرك أيها الآب القدوس، من أجل اسمك القدوس الذي أسكنته في قلوبنا ...“ (ديداحي ١٠:٢)، تعود فتقول: ”أمّا الأنبياء، فدعوهم يشكرون بقدر ما يريدون“ (ديداحي ١٠:٧).

ولكن عندما صار التقليد الرسولي في خطر من أن يتغيّر بسبب ظهور الهرطقات، وضعت الكنيسة نصوصاً ليتورجية إلزامية، وهي التي تُعرف باسم: ”صلوات التّقدس“.

واحدة من صلوات الشكر قبل نيقية

وفيما يلي أوردُ واحدةً من صلوات الشكر، أو صلوات الإفخارستيا، التي كانت تُصلى قبل مجمع نيقية المسكوني الأول سنة ٣٢٥م.

”إننا نقيم لك الشكر ياربُّ، بواسطة ابنك المحبوب يسوع المسيح. الذي أرسلته في آخر الدهور، مخلصاً وفادياً، وهو ملاك مشورتك، وكلمتك غير المفترق منك. الذي به عملت كلُّ شيء. وبه سُررت. الذي أرسلته من السماء إلى بطن العذراء، فحبلت به، وفيها صار جسداً، وأعلن ابنك المولود من الروح القدس، والعذراء. الذي أكمل إرادتك، وقدم لك شعباً مقدساً. ويسط يديه للألم، حتى خلص من الألم، أولئك الذين آمنوا بك. هذا الذي حين خافوه، أسلم ذاته بإرادته إلى الألم، لكي

يزيل الموت، وبمزق صك الشيطان، وبجطم جهنم، ويضئ الأبرار، ويثبت الشريعة، ويُعلن القيامة. ولهذا، أخذ خُبزاً، وقدم لك الشكر، وقال: خذوا كلوا هذا جسدي، الذي يُكسر عنكم. وهكذا الكأس قائلاً: هذا هو دمي الذي يُسفك عنكم. وكلما فعلتم هذا، تقيمون تذكاري.

والآن، نقيمُ تذكاري موته وقيامته. ونقدم لك الخبز والخمر، شكراً لك، لأنك جعلتنا أهلاً أن نقف أمامك، ونخدمك ككهنة، ونضرع إليك أن تُرسل روح القدس على مقدمة كنيستك المقدسة، وأن تمنح الذين يشتركون أن يكونوا واحداً. وأن يُكملوا بالروح القدس، من أجل تثبيت إيمانهم في الحق. حتى نسيحك ونمجِّدك، في ابنك يسوع المسيح، الذي به يكون لك، ولروح القدس، المجد والكرامة في كنيستك المقدسة، الآن وكل أوان، وإلى كل الأجيال.

ويجيب الشعب: آمين^(٣٨).

هذا هو القُدَّاس الإلهي في صورته البسيطة المختصرة في كنيسة ما قبل نيقية. وهي خدمة تستغرق بين ١٥-٢٠ دقيقة. ومن هذا النظام الرباعي، أخذت مجموعات القُدَّاسات في الشرق والغرب في القرن الرابع فصاعداً.

إن صلاة الإفخارستيا، محسوبة أنها صلاة واحدة متصلة، لا يفصلها حاجز، ولا تجاوب عليها الجماعة، إلا عند ختامها بالمرد "آمين". وهو ما أشار إليه القُدَّيس يوستينوس الشهيد (١٠٠-١٦٥م)^(٣٩).

٣٨- عن مخطوط "قُدَّاس ما قبل نيقية والتعيرت المتأخرة التي طرأت عليه"، محفوظ في مكتبة دير السيدة العذراء السريانية بوادي الطرون.

٣٩- البطريك إغناطيوس أفرام الثاني، مرجع سابق، ص ٢٤٨

مقدّمة الأنافورا في قُدّاس القُدّيس سراييون

ليس لدينا نصوص ليتورجية موثقة للقُدّاس في كنيسة مصر، تعود إلى ما قبل مجمع نيقية سنة ٣٢٥م. أمّا أقدم وثيقة لهذا التّقليد الإسكندري وصلت إلينا، فهي حولاجي القُدّيس سراييون أُسقف تمويس Thmuis بالوجه البحري، والذي صار أُسقفًا قبل سنة ٣٣٩م، وتبيّح ما بين سنة ٣٥٣م وسنة ٣٦٠م. وهو الخولاجي الذي حُفظ لنا نصّه في مخطوط يعود زمن نساخته إلى القرن الحادي عشر الميلادي^(٤٠).

وهناك من الأدلّة القويّة من داخل نصّ قُدّاس القُدّيس سراييون، ما يُثبت أنه نصّ منقول عن صلاة إفخارستية مصريّة، أكثر قِدماً من زمن سراييون نفسه. ويمكننا استيضاح المخطوط العريضة لهذه الصلّاة المصريّة القديمة، بمقارنتها بفقرات ليتورجية، وردت في كتابات كُتاب مصريّين، منذ القرن الثّالث الميلادي^(٤١).

أمّا مقدّمة أنافورا القُدّيس سراييون، والتي أُوردها فيما يلي في خمس فقرات، فيتّضح لنا منها، أنّ الفقرة الأولى منها، تدحض تعليم أريوس، الذي كان يقول: 'إنّ الابن لا يعرف جوهر الآب'. وهذا يدفعنا إلى الظنّ، بأنّ هذه الفقرة الأولى، قد ألحقت بمقدّمة الإفخارستيا في قُدّاس القُدّيس سراييون، في خلال الرُّبع الأوّل من القرن الرّابع الميلادي، حين كانت الهرطقة الأريوسية على أشدها في ذلك الوقت^(٤٢).

وهذه المقدّمة هي:

40- Gregory Dix, Dom, *op. cit.*, p. 162.

41- *Ibid.*, p.162.

42- *Ibid.*, p.165.

(١) ”مستحقٌ ومستوجبٌ أن نَسْبَحَكَ ونُرْتِّلَ لك ونمَجِّدَكَ، أنتَ غير المولود، أبا الابن الوحيد يسوع المسيح. نَسْبَحَكَ أيها الإله غير المولود، غير المفحوص، غير الموصوف، غير المدرك من كلِّ خليقة. نَسْبَحَكَ أنتَ الذي يعرفك ابنك الوحيد، والذي أخرج الخليقة عنك، وأظهرها لك، وعرفها بك. نَسْبَحَكَ أنتَ الذي تعرف الابن، وتكشف أمجاده للقديسين. أنتَ الذي يعرفك ويراك الكلمة المولود منك، ويُظهرك للقديسين.

(٢) نَسْبَحَكَ أيها الآب غير المنظور، مانح الخلود، أنتَ مصدر الحياة وبنوع الثور، وبنوع كلِّ نعمة، وكلِّ حق. يا محبَّ البشر، ومحبَّ الفقير، والمصالح للكُلِّ، ومجتذب الجميع إليه، بمجيء ابنك الحبيب.

(٣) نتوسَّل إليك، اجعلنا أناساً أحياء. امنحنا روح الثور، حتى نعرفك، أنك أنتَ الحق، ويسوع المسيح الذي أرسلته. امنحنا الروح القُدَّس، لكي نقدر أن نعلن عن أسرارك التي لا توصف، ونُخبر بها. ليتكلمَ فينا الرَّبُّ يسوع، والروح القُدَّس، ويسبِّحانك بواسطتنا.

(٤) لأنك أنتَ فوق كلِّ رئاسة، وسُلطان، وقوَّة، وسيادة، وكلِّ اسم يُسمَّى، ليس فقط في هذا الدهر، بل أيضاً في الآتي.

(٥) أنتَ الذي يقف حولك ألوف ألوف، وربوات ربوات الملائكة، ورؤساء الملائكة، والعروش، والرَّبوبيَّات، والرَّئاسات، والسُّلاطين. أنتَ هو الذي يقف حولك السِّيرافان المكرِّمان جداً، ذوو السِّتة أجنحة. فبجناحين يغطِّيان وجهيهما، وباتنين يغطِّيان أرجلهما، ويطيَّران باتنين. ويقدِّسانك. اقبل أيضاً تقديسنا، قائلين معهم ...“.

تطور النص الليتورجي لمقدمة الأنافورا

إنَّ المقدِّمة التَّقليديَّة لصلاة الإفخارستيَّا كما رأيناها في قُدَّاس ما قبل نيقية - والذي سبق ذكره - هي تقديم الشُّكر للآب بواسطة ابنه يسوع المسيح: ”إننا نقيمُ لك الشُّكر يا ربُّ، بواسطة ابنك المحبوب يسوع المسيح...“. وهذا هو مضمون الإفخارستيَّا كُلِّها.

وتشدُّ مقدِّمة أنافورا القُدَّيس سراييون عن هذه القاعدة الرئيِّسيَّة، حيث لا يرد فيها كلمة ”الشُّكر“ أي ”الإفخارستيَّا“، بل قد اختفى منها تماماً أيُّ إشارة لفعل ”الشُّكر“ هذا.

إلَّا أنَّ تطوُّراً قد لحق بمقدِّمة الأنافورا، تسبَّب في غموض الهدف الأساسي من الصَّلَاة، وهو تقديم الشُّكر لله. فأفعال التَّسبيح استطلت واتسعت، لتتخطى الشُّكر كفعل أساسي، إلى أفعال التَّرتيل والسُّجود وغيرها. وهي الأفعال التي لحقت بمرء الشَّعب: ”مستحقٌّ وعادلٌ“ - كما سنرى بعد قليل - ودخلت على مقدِّمة الأنافورا صفات إضافيَّة تختص بأقنوم الآب، وأقنوم الابن المتجسِّد، وهي صفات تبيِّن وحدانيَّة أقنومه وخواص كلِّ من طبيعته الإلهيَّة والإنسانيَّة. ممَّا يدل على مجاهمة لبعض الهرطقات التي ظهرت في الكنيسة، فيما يتعلَّق بالثالوث والتَّجسُّد. بالإضافة إلى أنَّ تسبحة الشَّارويم: ”قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ...“، قد أُضيف إليها هتاف: ”مباركٌ الآتي باسم الرَّبِّ“. بالإضافة إلى الأواشي الكثيرة التي نجدُها في القُدَّاس المرقسي القبطي. وهذه هي أهم الإضافات التي لحقت بصلاة مقدِّمة الأنافورا.

وفيما يلي شرحٌ لهذا التَّطوُّر، الذي لحق بمقدِّمة الأنافورا.

بعد أن استقرَّت نصوص الصَّلوات الليتورجيَّة، وأصبحت نصوصاً

إلزامية، فإنَّ الصَّيغَ المختصرة التي يتم تبادلها بين الكاهن والشَّعب في مقدِّمة الأنافورا، قد أثَّرت على التُّصوص الليتورجية التي تعقبها مباشرة، فأكسبتها ما يُعرف في علم الليتورجيا باسم Stereotyped form . حيث يلتقط الكاهن أو الشَّعب الكلمات الأخيرة من الحوار الليتورجي الذي يدور بينهما، ليبدأ بها صلَّاته أو مردِّه، فتأتي الصَّلوات في شكل أخذ وعطاء، بين رئيس الصَّلَاة وجموع المصلِّين. وهذا يتَّضح جلياً من معظم الصَّلوات المقدَّسة للأنافورات المختلفة.

ومن أمثلة ذلك، قول الشَّمَّاس: ”الجلوس يقفوا“، فيقول الكاهن: ”أنت الذي يقف حولك الملائكة ورؤساء الملائكة ... الخ“.

وفي نهاية الصَّلَاة السَّابق ذكرها مباشرة، يقول الكاهن: ”... يسبِّحون على الدَّوام ويصرخون قائلين ...“، فيأتي مرد الشَّعب ملتقطاً كلمة قائلين، ليقول: ”قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ ربُّ الصِّبَاؤوت“، فيقول الكاهن معقِّباً على مرد الشَّعب: ”قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ أنت بالحقيقة، أيها الرَّبُّ إلَهِنا“... الخ.

وتبدأ صلاة الإفخارستيا في الديداجي، وفي التَّقليد الرِّسولي لهيبوليتس بصلاة شكر بسيطة، هي: ”نشكرك - Eὐχαριστοῦμεν“.

أمَّا في الشَّكل الشَّائع للأنافورا، فقد جرت محاولة ربط فعل الشُّكر ”نشكرك“، مع المرد: ”مستحقٌّ وعادل“، الذي هو المرد الأخير من الحوار الافتتاحي للإفخارستيا. وبهذه الطَّرِيقَة جاء الشَّكل الكلاسيكي لبداية الأنافورا في كلِّ الشَّرْق والغرب. وهو الشَّكل الذي جاء معتمداً على الإسهاب والتَّضخيم للمرد: ”مستحقٌّ وعادل“ - Αξιον και δίκαιον“.

ففي ليتورجِيَّة القُدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م)، جاءت بداية الأنافورا هكذا: ”مستحقٌّ وعادلٌ أن نَسبِّحَكَ σὲ εὐχαριστεῖν ونباركَكَ σὲ εὐλογεῖν ونحمدَكَ σὲ αἰνεῖν ونشكرَكَ σοὶ εὐχαριστεῖν ونسجد لك σὲ προσκυνεῖν في كلِّ مكان سيادتكَ ... الح ἐν παντὶ τόπῳ τῆς δεσποτείας σου“. فأفعال الشُّكر والتَّسبيح هنا هي خمسة أفعال.

ولازالت مقدّمة هذه الأنافورا، أكثر غنى من تلك التي للقُدِّيس باسيليوس اليونانيَّة: ”أنت هو السيّد الرّب الإله الآب ضابط الكلِّ، إنه مستحقٌّ ومستوجبٌ ولائقٌ بسيادة قداستك، أن نَسبِّحَكَ، ونحمدَكَ ونباركَكَ، ونعبدَكَ، ونشكرَكَ، أنت هو الإله الحقيقي وحدك ...“. وأفعال الشُّكر والتَّسبيح هنا هي أيضاً خمسة أفعال.

وهناك نماذج شرقيةٌ أُخرى، أطول وأوفر غزارة من تلك النماذج اليونانيَّة السَّابِقة^(٤٣).

فليتورجِيَّة مار مرقس الرّسول (القُدّاس الكيرلسي) في الكنيسة القبطيَّة، تقدّم لنا أفعال الشُّكر والتَّسبيح بكثرة أكثر من أيِّ ليتورجِيَّة أُخرى، شرقاً وغرباً، فتقول: ”مستحقٌّ ومستوجبٌ أن نَسبِّحَكَ، ونرتِّل لك، ونباركَكَ، ونخدمَكَ، ونسجد لك، ونشكرَكَ، وفتحِّدَكَ، ونعترف لك، ليلاً ونهاراً بشفاه غير هادئة، وقلب لا يسكت، وتمجيدات لا تنقطع ...“.

فأفعال الشُّكر والتَّسبيح هنا هي ثمانية أفعال، بينما نجدها خمسة فقط في ليتورجِيَّة القُدِّيس يعقوب الرّسول في الطقس السُّرياني الأنطاكي، حيث يرد النَّصُّ اللّيتورجيُّ هكذا:

43- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 88, 89.

”إنه بالحقيقة مستحقٌ وعادلٌ ولائقٌ وضروريٌّ، أن نَسبِّحَكَ ونباركَكَ ونسجدَ لك ونمجدَّكَ ونشكرَكَ، يا خالقَ الخليقةِ المرئيَّةِ وغير المرئيَّةِ. أنتَ الذي تسبِّحُكَ سَمَاوَاتُ السَّمَوَاتِ وكلُّ قُوَّاتِهَا، الشَّمْسُ والقمرُ وكلُّ مجموعاتِ النُّجُومِ والأرضُ والبحرُ وكلُّ ما فيها، أُورُشَلِيمُ السَّمَائِيَّةُ، كنيسةُ الأَبكارِ المكتوبينِ في السَّمَوَاتِ. الملائكةُ ورؤساءُ الملائكةِ والكراسيُّ والأربابُ والرَّئِاسَاتُ والقُوَّاتُ والسِّيَادَاتُ المخوفةُ. الشَّارُويِمُ ذُوو الأَعْيُنِ الكَثِيرَةِ، والسِّيَرافِيمُ ذُوو السِّتَّةِ أَجْنَحَةٍ، بِجَنَاحَيْنِ يَغْطُونَ وجوههم، وبِاثْنَيْنِ أَرْجُلَهُم، وَيَطِيرُونَ بِاثْنَيْنِ. وَيَصِيحُونَ الواحدَ لِلاَخرِ بتسبيحاتِ إلهيَّةٍ لا تَنقَطِعُ، من فَمٍ لا يَسْكُتُ، بتسبيحةِ الغلبةِ لِمجدِّكَ العَجيبِ، يَصِيحُونَ بصوتِ عالٍ، وِمْجِدُّونَ وَيَصْرُخُونَ قائلينَ“.

وَيُعَقِّبُ القُدَّيسُ كيرلسُ الأورشليميُّ (٣١٥-٣٨٦م) على هذه المَقْدَمَةِ في عِظَتِهِ إلى المَعْمَدِينِ الجُدُدِ (عِظَةُ ٦:٥)، فيقولُ:

[... بعد ذلك نذكر السَّماءَ والأرضَ والبحرَ، الشَّمْسُ والقمرَ والنُّجُومَ وكلَّ الخليقةِ العاقلةِ وغير العاقلةِ، المرئيَّةِ وغير المرئيَّةِ، الملائكةَ، ورؤساءَ الملائكةَ، الرَّئِاسَاتِ، والسِّيَادَاتِ، والقُوَّاتِ، والكراسيُّ، والشَّارُويِمُ ذُوو الأوجهِ الكَثِيرَةِ. ثم نقولُ بصوتِ عالٍ كلماتِ داوودَ: «عَظِّمُوا الرَّبَّ مَعِي». نذكرُ أيضاً السِّيَرافِيمَ الذين رَأَهمُ إِشعِياءُ بِالرُّوحِ القُدُّسِ وهم يَحيطُونَ بِعرشِ اللهِ بِجَنَاحَيْنِ يَسْتَرُونَ وجوههم، وِمْجَنَاحَيْنِ أَرْجُلَهُم، وَيَطِيرُونَ بِاثْنَيْنِ. والجميعُ يَصيحُونَ: قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الصِّبَاوَتِ. لأنَّهُ لِهَذَا السَّبَبِ، نَحْنُ نَكْرِّرُ هذا الاعترافَ لله، الذي انتقلَ إلينا من السِّيَرافِيمِ، حتَّى نشاركَ جنودَ العالمِ الفوقانيِّ في التَّسْبِيحِ].

وبينما تخلو ليتورجِيَّةُ القُدَّيسِ باسيلْيوسِ القبطيَّةِ من أفعالِ تَسْبِيحِ،

نجدها في ليتورجية القديس غريغوريوس القبطية خمسة أفعال أيضاً، هي: **”نسيحك، وباركك، ونخدمك، ونسجد لك، وفعجّدك“**. أمّا ليتورجية القديس سراييون - من القرن الرابع الميلادي - فتأتي فيها أفعال التّسبيح ثلاثة فقط هكذا: **”مستحقّ ومستوجب أن نسيحك، ونرتّل لك، وفعجّدك“**.

وهكذا انفردت اللّيتورجية المرقسية القبطية، بأفعال تسبيح تختص بها هي وحدها، وهي: **”نرتّل لك، ونخدمك، ونعترف لك“**.

ويتخلّل هذه الصّلاة، مردّين للشّمّاس: الأوّل هو: **”أيها الجلوس قفوا“**، والثاني هو: **”وإلى الشّرق انظروا“**. وهناك مردّد أخير، يسبق التّسبيحة الشّاروبيمية مباشرة هو: **”نصت“**.

”أيها الجلوس قفوا“

تنفرد كنيسة الإسكندرية بقول الشّمّاس: **”أيها الجلوس قفوا“**. أمّا اللّيتورجيات الأخرى، فيأتي النداء فيها بالوقوف هكذا: **”قفوا“**، أو **”فلنقف“** (٤٤).

وهذا المردّد، لا يعني بالطبع أن الشّعب كان جالساً، لأنّ المردّد السّابق له مباشرة كان: **”قفوا بخوف وإلى الشّرق انظروا“**. فتنبه الشّمّاس هنا ونحن قيام على أقدامنا، هو لئلا يدرك التّعب أحداً منّا، أو يمرّ التّهاون على قلبه، أو يعود إلى السّجس. فيطلب الشّمّاس أن تنتبه عقولنا لا أقدامنا، وأن ننال بمجة الانتباه الرّوحي، لا الوقوف الجسداني (٤٥).

٤٤ - البطريك إغناطيوس أفرام الثاني، مرجع سابق، ص ١٩٢

٤٥ - معاني رشم الصّليب، مرجع سابق، ص ٨١

”وإلى الشَّرْق انظروا“

وجاء هذا المرد حسب نص القُدَّاس الباسيلي اليوناني، هكذا: Eίς ἀνατολὰς βλέπετε أي: ”وإلى الشَّرْق انظروا دائماً“. حيث جاءت الكلمة βλέπετε بدلاً من βλέψατε. حيث المذبح شرقاً الذي لا يجب أن يفارق عقولنا وقلوبنا، سواء كُنَّا في الكنيسة، أو في أعمالنا. فإلى الشَّرْق انظروا كلَّ حين، حيث المذبح، وجسد ودمَّ عمانوئيل إلهنا موضوعين عليه. والملائكة ورؤساء الملائكة قيام.

وقد رُتبت الكنيسة، أن ننظر إلى الشَّرْق قبل تسبحة الشَّاروبيم، لأننا بعد أن استعدنا كرامتنا بالمعمودية المقدَّسة، نُقبِل إلى التَّسبيح بعزَّة البنين، وشكر المغدَّيين^(٤٦).

”نصت“

في نهاية صلاة ”بدء التَّقدمة“، وقبل التَّسبحة الشَّاروبيمية مباشرة، يقول الشَّماس مرد: ”نصت - Προσχῶμεν“.

ولقد تفاوتت مخطوطات الخولاجيات القبطية في إيراد هذا المرد من عدمه. فبينما لم يرد في كثير منها^(٤٧)، فقد ورد في بعضها^(٤٨). أمَّا شيوخه

٤٦- معاني رشم الصَّليب، مرجع سابق، ص ٨١

٤٧- لم يرد هذا المرد في مخطوط الفاتيكان رقم (١٧ قبطي)، وهو أقدم مخطوط خولاجي قبطي عربي كامل، وتاريخ نساخته يعود إلى سنة ١٢٨٨م. ولم يرد كذلك في مخطوطات الخولاجيات أرقام (١٣٣ ؛ ١٣٦ ؛ ١٤٧ طقس). بمكتبة دير القُدَّاس أنبا مقار. ولم يورده الطُّوخي في الخولاجي القبطي الذي طبعه في روما في القرن السَّابع عشر. ولم يرد في النَّص اليوناني للقُدَّاس المرقسي، بحسب مخطوط كسمارسك F. Kacmarcik Codex.

٤٨- ورد هذا المرد في النَّص اليوناني للقُدَّاس الباسيلي، الذي نشره رونودوت E.

في كل القُدَّاسات، فكان بعد تدوينه في الخولاجي المطبوع سنة ١٩٠٢م، حيث سادت الممارسة التي تشير إليه، وتوارت الأخرى.

أمَّا قول الشَّمَّاس: ”نصت“، فيعني أن يكف كلُّ إنسان عن الاهتمامات الباطلة، وأن يرفع عيني عقله إلى الشَّاروبيم الممتلئين أعيناً، وأن يصرخ الكل متى سمعوا هذا النداء السَّماوي. لأنَّ إشعياء أخبرنا، بأنَّ «هذا نادى ذاك». وعندئذ يجب أن تصمت الكنيسة بُرهة، لكي تسمع عقلياً تسبيح الشَّاروبيم، وتشارك معهم بالتسبيح الدائم قائلين: ”قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ...“.

وقد ورد في خولاجي من القرن الرَّابِع عشر، هذا المرد هكذا: ”نصت بسكون ومعرفة. القوَّات السَّمائيَّة تسبِّح، ونحن أيضاً نُسبِّح معهم“^(٤٩).

مقدمة الأنافورا في القُدَّاس المرقسي (الكيرلسي)

إنَّ هذه الصَّلَاة التي تبدأ بالحوار اللِّيُتورجي: ”الرَّبَّ مع جميعكم“، وتنتهي قبل التَّسبيحة الشَّاروبيميَّة مباشرة، هي قصيرة في القُدَّاس الباسيلي، وأطول نوعاً في القُدَّاس الغريغوري، ولكنها طويلة جداً في القُدَّاس المرقسي، بعد أن أُضيف إليها عددٌ كبيرٌ من الأواشي، فلقَّ هذه الصَّلَاة إلى نصفين متباعدين عن بعضهما البعض.

فمقدمة الأنافورا في القُدَّاس المرقسي – وفي نصفها الأوَّل – يتخلَّلها

١٣٤) (Cf. PG, 31, 1636C) Renaudot، كما ورد أيضاً في مخطوط خولاجي رقم (١٣٤ طقس). مكتبة دير القديس أنبا مقار. وهو معروف أيضاً في قُدَّاسات الكنيسة اليونانيَّة. Cf. O.H.E. Burmester, *The Greek Kirugmata, ... op. cit.*, p. 375.

الثلاث مردّات السَّابِقِ ذَكرها، وهي: ”أيها الجلوس قفوا“، و: ”وإلى الشَّرْقِ انظروا“، و: ”نصت“.

وفيها يقول الكاهن: ”... أنت هو الذي خلق الإنسان كصورتك وكشبهك، وخلقك كلَّ الأشياء بحكمتك. نورُك الحقيقي، ابنُك الوحيد، ربُّنا وإلهنا ومخلِّصنا وملِكنا كلِّنا، يسوعُ المسيح، هذا الذي من قِبَلِه، نشكُرُ ونُقَرِّبُ لك معه، مع الرُّوحِ القُدُّسِ، الثالوث المقدَّس المساوي غير المفرق، هذه الذَّبيحة النَّاطقة، وهذه الخدمة غير الدَّمويَّة“.

وهنا يرشم الكاهن دُرَجَ البُخور، ويضع يد بخور في الجَمْرَةَ، ثمَّ يأخذ الجَمْرَةَ بيده، ويقول مكْمَلًا الصَّلَاةَ: ”هذه السَّيِّ (أي هذه الذَّبيحة النَّاطقة، وهذه الخدمة غير الدَّمويَّة) تُقَرِّبُها لك جميع الأمم“.

ثم يرشم بالجَمْرَةَ على القرايين الموضوعَة على المذبح من الشَّرْقِ إلى الغرب، ومن الشَّمَالِ إلى اليمِين، وهو يقول: ”من مشارق الشَّمْسِ إلى مغاربها، ومن الشَّمَالِ إلى اليمِين“.

ثم يرفع البُخور فوق التَّقدمات، ويقول: ”لأنَّ اسمك عظيمٌ ياربُّ في جميع الأمم، وفي كلِّ مكان، يُقدِّمُ بخورًا لاسمك القُدُّوس، وصعيدة θυσια - أي ذبيحة - طاهرة، وعلى هذه الذَّبيحة وهذا القربان“.

وهنا كان يأتي مباشرة، مرد الشَّمْسِ: ”أيها الجلوس قفوا، وإلى الشَّرْقِ انظروا“. ولكن بدلًا منه أتى مرد الشَّعْبِ: ”ياربُّ ارحم“، لِيُصَلِّيَ الكاهن بعده مباشرة، خمس عشرة أوشيةً، قبل أن يُكْمَلَ الكاهن تكملة مقدِّمة الأنافورا، قائلاً: ”لأنك أنت هو الله الذي فوق كلِّ رئاسة، وكلِّ سُلطان، وكلِّ قوَّة، وكلِّ سيادة، وكلِّ اسم يُسمَّى، ليس في هذا الدَّهر فقط، بل وفي الآتي...“. حيث يأتي في نهاية هذه

الصلاة، التسبحة الشاروبيمية.

وفيما يلي توضيح للتسلسل الذي ينتهجه القُدَّاس المرقسي:

أواشي: (١) السلامة (أو بالبحري السلام).

(٢) المرضى.

(٣) المسافرين.

(٤) مياه النَّهر، أو الزُّروع، أو أهوية السَّماء.

(٥) الملك.

المجمع والتَّرحيم (وهو بمثابة أوشية الرَّاقدين).

(٦) القرابين.

(٧) البطريرك.

(٨) الأساقفة.

(٩) بقية الأرثوذكسيين.

(١٠) الموضع.

(١١) القيام والمشاركين في الطلبة.

(١٢) الذين أمرونا أن نذكرهم.

يقول الشَّمَّاس: اسجدوا لله بخوف ورعدة.

(١٣) الخديم. (وهي تقال سراً. وبدايتها: "أذكر ياربُّ

نفسى الضَّعيفة الشَّقِيَّة ...").

(١٤) الاجتماعات.

يقول الشَّمَّاس: أيها الجلوس قفوا.

الطلبة (التي بدايتها: "حل المربوطين"). ويرد الشَّعب على

كل رُبْع منها "ياربُّ ارحم".

يقول الشَّمَّاس: وإلى الشَّرْق انظروا.

يقول الكاهن: ”لأنك أنت هو الله، الذي فوق كلِّ رئاسة، وكلِّ سلطان، وكلِّ قوَّة، وكلِّ سيادة، وكلِّ اسم يُسمَّى، ليس في هذا الدَّهر فقط، بل وفي الآتي ... لكن مع كلِّ من يُقدِّسك، اقبل تقديسنا ممَّا نحن أيضاً ياربُّ، إذ نسبِّحك معهم قائلين“.

يقول الشَّمَّاس: نصت.

يقول الشَّعب: قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ، ربُّ الصِّبَاووت ... الخ

إنَّ هذا الكَمَّ الكبير من الأواشي، التي ألحقت على القُدَّاس المرقسي في بدايته، قد شَطَرَ مقدِّمة الأنافورا إلى نصفين، هذه المقدِّمة التي هي في مضمونها الأساسي - بل مضمون صلاة الإفخارستيا كُلِّها - صلاة شكر، مقدِّمة لله بابه يسوع المسيح. وهذه الأواشي الخمس عشرة - إذا اعتبرنا أنَّ المجمع والتَّرحيم هما بمثابة أوشية خاصة بالمنتقلين - هي أحد أهم الإضافات التي لحقت بمقدِّمة أنافورا القُدَّاس المرقسي، على يد القديس كيرلس الكبير (٤١٢-٤٤٤م).

أمَّا قُدَّاسا القديسين باسيلوس وغريغوريوس، فقد أبقى كلُّ منهما على مقدِّمة الليتورجيا متماسكة، حيث تأتي الأواشي فيهما قرب النِّهاية، أي بعد حلول الرُّوح القُدُّس علينا وعلى القرايين. وهو التَّطوُّر الذي لحق بمكان الأواشي في القُدَّاسات عموماً، في غضون القرن الرَّابع الميلادي.

بل إنَّ الطَّلِبَات التَّوسُّليَّة Litany في قُدَّاس القديس سراييون الخاصة بالأحياء والمنتقلين، ومقدِّمي القرايين، هي إضافات لحقت بالنَّص الأصلي لصلاة الإفخارستيا - كما حدث في كثير من الكنائس الأخرى - بعد صلاة الاستدعاء، وذلك قبل نهاية القرن الرَّابع الميلادي.

لقد كانت الرغبة العامة في الكنائس، هي إدخال الطلبيات التوسُّلية Litany في صلاة الإفخارستيا، بعد استحالة القرايين إلى جسد المسيح ودمه الكريمين، لتنال هذه الطلبيات قوتها وفعاليتها من الذبيحة الموضوعية على المذبح.

وهذه الرغبة، قد ظهرت أولاً في كنيسة أورشليم، في غضون القرن الثالث الميلادي، حيث تَمَّت فيها فعلاً هذه الممارسة الليتورجية. وهو ما نجد تفسيره الروحي والليتورجي بعد ذلك، في عظات القديس كيرلس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م)، وبالتحديد سنة ٣٤٨م^(٥٠).

ولكن حتى ذلك الوقت، لم يكن هذا التطور قد طال ليتورجية القديس سراييون المصريّة. فلقد تبنت كنيسة الإسكندرية مفهوماً آخر، استقته من نصوص صلواتها الليتورجية التي ترى أن الخبز والخمر الموضوعين على المذبح، هما "قُدسات سبق وضعها أمام الرب على المذبح"^(٥١). ففي مقدمة أنافورا القُداس المرقسي - وفي نصفها الأوّل بالتّحديد - يقول النصّ الليتورجي: "لأنّ اسمك عظيم يا رب، في جميع الأمم... وعلى هذه الذبيحة *θυσια* وهذا القربان". وبعد صلاة الكاهن "أجيوس"، يقول: "... املاً هذه الصّعيدة *θυσια* (أي: الذبيحة) التي لك يا رب بالبركة التي من قبلك، بحلول روحك القُدوس عليها". ويقول أيضاً بصيغة الماضي: "قرايينك هذه المكرّمة السّابق وضعها أمامك، هذا الخبز، وهذه الكأس...". وأيضاً: "أنت الذي وضعنا أمام مجدك القُدوس قرايينك، ممّا لك يا أبانا القُدوس...".

50- Gregory Dix, Dom, *op. cit.*, p. 171.

51- *Ibid.*, p. 171.

فهذه كُلُّها إشارات، ترمي إلى طقس تقديم الحَمَل الذي حفظته كنيسة مصر، طقساً سرَّائياً كاملاً، فُقدت أصوله الأولى من الكنائس الأخرى. ولذلك فقد أُلحقت الطَّلِبَات التَّوسُّلِيَّة Litany في ليتورجِيَّة القُدِّيس مرقس، في مقدِّمة الصَّلَاة الإفخارستيَّة، وقبل التَّسْبِحة الشَّاروبيميَّة. كما نجد أنَّ الأواشي في قُدَّاس القُدِّيس سراييون أُسْقِف تمويس في القرن الرَّابِع، تأتي فيه في البداية، أي قبل أن تبدأ مقدِّمة الأنافوراء.

وإنَّ اختلاف الكنائس في أمر هذه الأواشي، هو اختلافٌ كامل. فكنيسة روما، قد ألحقت هذه الطَّلِبَات التَّوسُّلِيَّة Litany في مقدِّمة الصَّلَاة الإفخارستيَّة، ولكن بعد التَّسْبِحة الشَّاروبيميَّة، باستثناء الطَّلِبَة من أجل المنتقلين، والتي أُلحقت بنهاية القُدَّاس. وفي كنيسة إديسسا - الرِّها - أُلحقت هذه الطَّلِبَات قبل التَّقديس مباشرة. وهكذا لم يكن هناك اتفاق عام بخصوصها بين مختلف الكنائس.

وعموماً، فإنَّ ما يميِّز التَّقْلِيد الإسكندري عن التَّقْلِيد الأنطاكي في هذه الجزئيَّة، هو أنَّ الأواشي في القُدَّاس ذي التَّقْلِيد الإسكندري، تأتي في البداية، كما في القُدَّاس المرقسي، وقُدَّاس القُدِّيس سراييون. ولكنَّها في القُدَّاس ذي التَّقْلِيد الأنطاكي، تأتي في النَّهاية، كما في القُدَّاسين الباسيلي والغريغوري القبطيين.

